روح الشاعر *

الأستاذ شفيق جبري

لم أهتد الى تعريف واضح لروح الشاعر ، ولكن الذي أعلمه أن لكل شاعر روحاً خاصة تغلب عليه في جملة شعره ، سواء أكان يمدح أم كان يرثي وسواء أكان يصف مشهداً من مشاهد الطبيعة أم كان يصف مشهداً من مشاهد الحياة العامة ، ولا يستطيع هذا الشاعر أن يتخلص من روحه في كل هذه الامور . فنراه في بعض المشاهد التي يستفيض فيها هدوء الحياة أو تنعم فيها العين بما يسرها أو يلذ فيها القلب بما يدخل عليه من الطمأنينة والسكينة يرجع الى روحه الخاصة من تلقاء نفسه أي من دون أن يفكر في هذا الرجوع ، ولعل في ضرب الامثال في هذا الموضوع توضيحاً لكل ماذكر :

فلنبدأ بشاعر من أشهر شعراء هذا العصر وهو « شوقي » . لقد زار شوقي في أوائل الاتتداب الفرنسي مدينة دمشق ، واحتفل به في دار من دور دمشق القديمة في حي النصارى ، فجلس في إيوان هذه الدار هو والمرحوم فارس الخوري ومحمد عبد الوهاب ، والضيوف كلهم كانوا

---

* كان هذا المقال من آخر ما خطت يد المرحوم الاستاذ شفيق جبري في معتكفه في بلودان. وكان رحمه الله يعده ليبعث به الى المجلة ، وقد تفضل اخوته فبعثوا الينا بأصوله أوراقا متفرقة متداخلة ، وتولت لجنة المجلة تنسيق هذه الاوراق على هذا النحو . وهي تأمل أن يكون نشر المقال تذكيرا بتراث الاستاذ جبري ، وأكثره مفقود نافد ، وبديوانه الذي لايزال مخطوطا . فلعل الوفاء يغلب على الجحود .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ساحة الدار المكشوفة جالسين حول البركة ، إني لا أنسى وجه شوقي ومحمـــد عبد الوهاب يغني ، لا أنسى ورد هذا الخد من شدة الطرب ، وقد عمل شوقي قصيدته المشهورة في دمشق : قم ناج جلق ... وألقاها عنه في المجمع العلمي المرحوم نجيب الريس صاحب جريدة القبس .

قدم شوقي دمشق والروح الوطنية في أهل دمشق وفي بلاد سورية كلها تلتهب التهاب النار ، لقد تغنى شوقي ببني أمية ومدحهم المدح اللائق بهم حتى سميت قصيدته في حينها : الأموية ، فقد كان لها الاثر البالغ في النفوس وعلى الرغم من هذا كله لم يتخل شوقي في قصيدته عن روحه الغالبة عليه ، فإذا هو يقول في بعضها :

والحور في دمر أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد في جلباب راقصة الساق كاسية والنحـــر عريان

لم ينس شوقي في قصـــيدته منظر الحور ومنظر الســـيقان ومنظر الولدان كما أنـــه لم ينس جلابيب الراقصات وكســـوة السيقان وعري النحور . هذا ما رآه شوقي في متنزهات دمشق الشهيرة : الربوة ودمر والهامة لا يخرج إليها أهل دمشق إلا لينسوا فيها متاعب الحياة وليتنعموا فيها براحة البال وطمأنينة النفس،لايذكرون فيها الحور والسيقان والراقصات والنحور ولاتخطر على بال واحد منهم،هذه المشاهد في متنزهات دمشق خلقت لتدخل على قلوبهم لذة الهدوء والراحة . أما شوقي فما خطر بباله شيء من مثل هذه اللذة في هذه المتنزهات ، خطر بباله ما ألفه في مقتبل عمره من مسرات الحياة وأظن أن قليلا منا من يعرف ألفته بهذه المسرات ولاسيما وهو في باريس يدرس فيها ، ولا حاجة بنا الى ذكر شيء من هذه المسرات مما رواه في بعض أحاديثه المرحوم الامير شكيب أرسلان لما قدم باريس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وزار شوقي في فندقه . ولم يتخل شوقي عن هذه الروح في قصيدته في زحلة في أبياته المشهورة التي يغنيها محمد عبد الوهاب : يا جارة الوادي. وما أظن أن أحداً يجهلها ويجهل ماتضمنته هذه الابيات من الشيء الذي أشرت إليه ، أي من مسرات الحياة .

ولنرجع الى الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وأعني به المتنبي، إنّا نعلم أين نشأ أبو الطيب ، إنه ابن البيد والقفار فمن أفق البادية درج خياله وفي البادية نشأ هذا الجبار فلا عجب اذا علقت بذهنه صور هذه البادية ، فقد ألِف إبل البادية وخيلها ومهامهها ومفاوزها وغزوها وجيادها وسيوفها وقناها على نحو ما فصّلت هذا كله في كتابي « المتنبي » ولست في حاجة الى هذا التفصيل في هذا المقطع من هذا المقال فحسبي أن أقول انه ابن البادية ، لم يَخْفَ عليه أمر من أمورها ولم تشكل عليه اللغة التي يحتاج إليها ابن البادية في وصف الإبل والخيل والسلاح وضروب ذلك.

ولقد قوّت فيه هذه النزعة مصاحبتُه لسيف الدولة في بعض الحروب ، فكأن الدنيا كلها في نظره حروب تلمع فيها السيوف والرماح وتتلاحم فيها الجيوش والفرسان ، وتكثر فيها الهزائم ، الى غير ذلك مما يستفيض في الحروب حتى إن صور هذه الحروب قد تعود الى ذهنه في بعض غزله وفي بعض مراثيه . ولم تفارقه هذه الصور في مجامع أطواره سواء أكان في مصر أم عاد الى العراق أم خرج الى بلاد فارس . وقد يرقّ غزله بعض الشيء ثم يعود الى شنشنته ، الى لغة الحروب وأدواتها فهو كما قال فيه الشريف الرضي : قائد عسكر . وقد يلخص لنا هذا الوصف الوجيز سرّ كل ما نشاهده في بعض شعره من صور الحروب ، فحياته كلها مظلمة الجوانب مثل ظلام الحروب ليس فيها شيء من بشاشة الدنيا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وابتسام الايام ، وقد ظهر عبوس هذه الدنيا وجهامة هذه الايام في بعض نظراته الفلسفية ، وهذا موضوع اذا أردت التبسط فيه امتد بي نفس الكلام ولكني ألخصه في الاستشهاد ببعض أبيات من شعره تدلنا الدلالة الواضحة على روحـه الغارقة في رؤية الدماء والحروب وأدوات هـذه الحروب الكريهة .

قدم طبرية فمدح فيها علي بن ابراهيم التنوخي وتعرض لوصـف البحيرة في مديحه فقال :

والموج مثل الفحول مزبدة تهـدر فيها وما بها قَطَم

أفلا نجد الغرابة في هذا الوصف ؟

كثير منا زاروا طبـرية على ما أظن وكثـير منا تمتعوا في هدوئها وسكينتها وشعروا فيها براحة النفس وهدوء البال ، وما أظن أن واحداً منهم خطر بباله وهو على ضفاف البحيرة هدير الفحول أو مرّت بذهنه صور الفرسان والحروب وما يجري فيها من هازم ومهزوم ، فإذا ذهبنا الى طبرية في بعض الفصول من فصول السنة فإنما نذهب إليها لنتحلل من تعب الجسم والروح ولننعم براحة هذا الجسم وهذه الروح ، وكنت أتنزه على ضفاف البحيرة ماشياً ساعتين فلا يخطر ببالي شيء من متاعب الحياة، هذا ما كانت توحيه إليّ والى كثير من الناس بحيرة طبرية ، أما أبو الطيّب المتنبي فلم يستطع أن يتخلى وهو على شاطىء البحيرة من روحه المتعلقة بروح الحروب .

ولقد زار طبرية في عصرنا الحديث كتّاب من كتّاب فرنسة الكبار وهم : « أناتول فرانس » و « لوتي » و « بارس » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

زارها لوتي على ما أذكر ولكنه لم ير فيها ما رآه المتنبي ، لم ير فيها صورة الدماء ولم يسمع فيها هدير الفحول ولا وقعت عينه على الفرسان ولا مرّ بجيش فيه هازم ومهزوم . ولكن ماذا رأى فيها ؟ إنه تذكر السيد المسيح وهو مع تلاميذه يلقي عليهم روح المحبة والسلام . فإذا غلبت على أبي الطيب المتنبي روح الحروب في بحيرة طبرية فقد غلبت على « لوتي » روح السلم في كتابه وليس من الضروري أن يكون شاعراً فإن الروح تغلب على الشاعر والكاتب .

فاذا قلت ان لكل شاعر روحاً خاصة به تغلب عليه في كل مشهد من المشاهد ولا يستطيع التخلص منها في أي موضوع من موضوعاته فإني لا أبالغ في قولي على ما أعتقد .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net